بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢- ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤- ٧ أيلول ٢٠٠٧م

الحب في القرآن الكريم
(المحبة منهج العلاقات الإنسانية)

الشيخ الحبيب علي زين العابدين الجفري

الأستاذ محيي الدين محمد قاسم

عمّان - المملكة الأردنية الهاشمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحب في القرآن الكريم

(المحبة منهج العلاقات الإنسانية)

الشيخ الحبيب علي زين العابدين الجفري

الأستاذ محيي الدين محمد قاسم

مقدمة:

لماذا نتحدث عن الحب في القرآن الكريم . . . .وما هي حاجتنا لتناول هذا الموضوع . . . وماذا يمكن أن نقدم للبشرية والحضارة المعاصرة من بديل انطلاقاً من منهج الحب في القرآن الكريم ؟

ذلك لأن الحب مطلب أصيل للذات الإنسانية، فالأرواح عطاش إليه، ولا سبيل لاستقرار النفس البشرية بدونه، فهو معراج الارتقاء للذات الإنسانية من حضيضها إلى سماء الذوق والإحسان في كل شيء، والحب هو القوة الوحيدة القادرة على تهذيب اندفاع الرغبة والغريزة والطمع البشري من عمق النفس، بل والقادرة على الردع الحقيقي عند عجز الترغيب والترهيب عن كبح جماح المطامع البشرية، ابتداء من الفرد ومروراً بالمجتمع ووصولاً إلى الحضارة الإنسانية .

فالحضارة المعاصرة، في ماديتها الفجة وتعاملها الشكلي – بزعم الموضوعية والحياد العلمي– مع الإنسان، وإنكار كل ما لا يخضع لمنطق القياس والتجربة، وعبر تبنيها لمذاهب المنفعة واللذة والبراجماتية وغيرها من المذاهب، التي تعلي من مكانة الفرد وإشباع غرائزه، قد جعلت الصراع هو محور الحياة . . .صراع الإنسان مع كل ما يحيط به من إنسان وكون وطبيعة .

فهي حضارة تقوم على نفي الآخر واستعباده واستنزافه. . .حضارة لا تتصور منطقاً للتعامل بين الأفراد والشعوب سوى القوة الطاغية الغاشمة، التي تتبدى فيها الكراهية ظاهرة واضحة من خلال وحشية التعامل في الحروب والمجاعات والكوارث، فالحرب هدفها إفناء الآخر وإذلاله بكل الطرق والوسائل والتفنن في طرق التعذيب والإذلال، مثلما لم تعد مشاهد المجاعات والأطفال

الذين يموتون جوعاً تثير مشاعر الناس ولا عواطفهم، بل أضحت من الأخبار التي اعتادها الناس لدرجة الملل وعدم المبالاة.

كيف وصل الإنسان المتحضر إلى هذه الدرجة من الكراهية والوحشية، ولماذا فرضت المادية والفلسفات النفعية منطقها في كل أوجه ومجالات الحياة الإنسانية . . . لقد تغلب منطق الصراع والكراهية على كل العلاقات الإنسانية وغير الإنسانية، وحتى في تعاملها الكوني لا تستخدم في استكشاف الفضاء سوى تعبير الغزو، ولا تجعل فيه إلا أسلحة الدمار الشامل والتجسس، بل إنها في توهمها لوجود حضارات أخرى على كواكب مجاورة، لا تطرح سوى الكراهية منطقاً وحيداً للتعامل مع الأغراب القادمين من الفضاء لغزو الأرض وتدمير حضاراتها .

لقد أضحى الإنسان المعاصر أسيراً وحيداً يصارع كوناً عملاقاً جافاً بارداً، ولا يتعامل مع الآخرين إلا من منطلق الخوف والمنافسة والعداء، وتحكمه تلك المشاعر في علاقته بكل ما يحيط به من بشر وشجر وحجر، فاهتزت كل الروابط الإنسانية التي كانت تقوم على الحب والود والرحمة، وانقلبت إلى نقيضها، أو مسخت واختزلت كل القيم والمبادئ الأخلاقية إلى ما تضفيه على الإنسان من إشباع ولذة حسية مؤقتة، يعقبها الإحساس بالوحدة والضياع والخسران .

وحتى العلاقات الإنسانية التي تقوم بالحب، تشوهت إلى ما يقتصر على إشباع الغريزة الجنسية، وأصبحت كلمة " الحب "- السامية تلك بكل معانيها وعلاقاتها المتعددة- تقتصر فحسب على مجرد "ممارسة الجنس" بين أي كائنين، يستوي في ذلك رجل وامرأة، أو رجلين، أو امرأتين، أو حتى ممارسة الجنس مع الحيوان والموتى، وأصبحت صناعة ما يسمى بالحب والأدب المكشوف والأفلام الإباحية صناعة رائجة تدر مليارات الدولارات، وغابت كل معاني الحب السامي عن علاقات الإنسان بأخيه الإنسان وبالكون المحيط به .

وهو غياب نلاحظ آثاره في كل مظاهر الحياة التي تحيط بنا . إذ لم نعد نفهم الحب على أنه حركة بلا سكون تغلف كل علاقات الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقات الإنسان بالبيئة وبالكون، ولم

نعد نفهم الحب – وهو الأهم – على أنه معراج إلى رب السموات والأرض، عبر تجليات القدرة الإلهية وتمثل صفاته وأسمائه . لم نعد نرى من الحب إلا جانب اللذة الحسية في علاقة وحيدة مادية مشوهة، وهذا الغياب للحب يفسر لنا كثيراً من سيادة علاقات الكراهية والصراع، ويفسر لنا هذا التعامل القاسي مع الطبيعة، والتدمير المتعمد لكل مظاهر التسخير الإلهي في الكون .

ولقد انتقلت إلى المجتمعات الإسلامية تلك الرؤى والصور والفلسفات المشوهة عن المحبة، الأمر الذي قاد إلى الظهور العنيف لكل دلالات البغضاء والأنانية والتطرف الفكري والديني، ولم يعد هناك في كثير من الأحيان ثمة مجال لتعامل المسلم حتى مع إخوانه إلا من خلال الإعجاب بالنفس وكراهية الآخر، فاختلت كل معايير التقييم والحكم في كافة المجالات والميادين الفكرية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها من المجالات التي أصحبت وعاء تتبدى فيه الكراهية والبغضاء .

ولعل غلبة الشعور بجحود الأبناء وعقوقهم، والمنازعات الزوجية المتكررة، وعلاقات العمل المشوهة، والحدة والثنائية وازدواج المعايير، وغياب منطق التعارف في العلاقات الإنسانية أو منطق الحوار في طرح القضايا وإبداء الرأي، والكوارث الطبيعية، والإحساس بعدم البركة في الوقت والمال والصحة، بعض مظاهر تغييب ثقافة الحب في المجتمعات الإسلامية .

فما هو البديل . . . كيف نخرج الإنسان من تلك الدائرة المغلقة. . كيف نعيد للإنسان الإحساس بإنسانيته وكرامته ؟ كيف نعيد للإنسان بعده الكوني المفقود ؟ وما هو المنهج والوسيلة المثلى لتعامل الإنسان في علاقاته الكونية المتعددة ؟ وكيف نتعامل مع ظواهر التطرف الفكري والديني السائدة بيننا ؟

إن الدعوة إلى هذا المؤتمر لتمثل حاجة حيوية لطرح موضوع الحب كأساس ومنهاج للتعامل الإنساني عموماً ، لا يقتصر في مخاطبته للمجتمعات الإسلامية بقدر ما هي دعوة عالمية، إذ إن طرح المحبة كمنهج للحياة الإنسانية عموماً هو أصل ترجع إليه مكارم خلقية كثيرة يفتقدها الإنسان بشدة، كالتعاون وإرادة الخير للناس ومشاركتهم الوجدانية في السراء والضراء ، والأهم أن يحب لهم مثلما

يحب لنفسه، وأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به، كما أن اتخاذ المحبة منهاجاً لحركة الحياة يعني السلامة من كثير من الأمراض النفسية والاجتماعية، كالحسد والأثرة والبغضاء وإرادة الشر بالناس والوقيعة والظلم والعدوان، والتي تشكل كلها مقدمات ومظاهر للفساد في الأرض في آن واحد .

ومن ثم فإن الدعوة إلى إحلال المحبة منهجاً حاكماً لكل العلاقات الإنسانية، هي دعوة عالمية للصلاح والطمأنينة والرضا والقناعة، وإلى إحلال علاقات التواد والتراحم بين البشر جميعاً كمقدمات مهمة لاستصلاح ولعمران الأرض، فأن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله دون غرض أو رجاء نفع أو دفع ضر، ما يشكل أساساً عاماً لكل الأخلاقيات الاجتماعية.

وذلك لأن لمحبة الناس أصل أعمق وهو الإيمان الذي يستلزم منا محبة الخالق المنعم، وهو أمر تدعو إليه كل الأديان والفلسفات التي تقر بالربوبية، ومن محبة الله تعالى تأتي وتشتق محبة عباد الله تعالى، لأن من أحب صانعاً أحب صنعته، ومن صدق في حبه لله تعالى أحب بحبه الخير لكل صنعته من بشر وشجر وحجر .

وهو ما يعبر عنه الإمام الغزالي بقوله :" وحب الله تعالى إذا قوي وغلب على القلب تعدى إلى كل موجود سواه، فكل موجود سواه أثر من آثار قدرته، ومن أحب إنساناً أحب صنعته وحاله وجميع أفعاله، ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا حمل إليه باكورة من الفاكهة مسح بها عينيه وأكرمها وقال: إنه قريب العهد بربنا "[1] .

---

[1] أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٩٦١، ج٢، ص١٣، الباب الأول من الكتاب الخامس من ربع العادات)، وانظر قول السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها في كتاب صفة الصفوة الجزء الأول، ص٤٣٥: "من تهاون بالعبد فهو من قلة معرفته بالسيد، فمن أحب الصانع أحب صنعته" . وانظر كذلك حب الرسول عليه الصلاة والسلام لجبل أحد وقوله: "إِنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّه"، عن أنس بن مالك . فالحب كمنهاج يسود علاقات الإنسان بكل ما يحيط به، وهو كون حي ينفعل بالإرادة البشرية ويبادل الإنسان المحب حباً بحب .

ولفظ الحب من الألفاظ كثيرة الدوران في كتاب الله تعالى، وقد جاء في أكثر من ثمانين موضعاً منها على أساليب شتى إثباتاً ونفياً، وهو أيضاً من الألفاظ التي وردت كثيراً في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فضلاً عن الألفاظ الأخرى التي تفيد دلالات الحب[1]، وهو في القرآن وفي السنة نوعان: حب الله تعالى للعباد، وحب العبد لله تعالى، ومصدر هذين النوعين من المحبة موجود في قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة:٥٤)[2]، فالحب والرضا المتبادل هو الصلة الحقيقية بين العبد وربه[3]، ومنها تشتق كافة التعاملات الإنسانية التي تتخذ القرآن منهجاً للتعامل بين الأفراد والجماعات.

ومن ثم تطرح الورقة على استحياء فكرة المحبة كمنهج في القرآن الكريم بكل جوانبها، وعبر استقراء مظاهر ودلالات حب الله تعالى لعباده، ثم مظاهر ودلالات حب العبد لله تعالى، كمقدمة لتناول موضوع الحب كمنهج في العلاقات الإنسانية.

أولاً: محبة الله تعالى للعباد: منهاج القدوة والاتباع:

إذا ما أردنا تتبع دلالات حب الله تعالى لعباده في القرآن الكريم، كمنهاج يقتدي به المرء ويتبعه في كل علاقاته الإنسانية، فهناك ثلاث مقومات أو درجات من الحب: درجة شاملة تفيض على كل العباد باعتبار الخلق و الاستخلاف في الأرض، ثم درجة مشروطة تخص مجموعة من العباد المتصفين بمجموعة من الصفات، التي لها السمو عما يشاركها في أصل معناها؛ ما يجعلها جديرة بالحب الذي

---

[1] فهناك علاقة ارتباط بين دلالات الحب وبين معاني كلمات وألفاظ ومفردات أخرى وردت في القرآن الكريم، وتشكل أحد جوانب مفهوم المحبة، كالرحمة والود والمغفرة والخوف والرجاء والثواب والبركة وإجابة الدعاء، وغيرها من المفاهيم التي لن تكتمل دراسة المحبة كمنهج للوجود والسلوك إلا بها.

[2] المائدة: ٥٤ في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

[3] انظر أحمد نصيب الحاميد، الحب بين العبد والرب، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٠، ص ص ١٥-١٦).

هو فوق مجرد القبول أو الرضا أو تلك التي يثاب المرء على فعلها، ثم درجة مطلقة فيها حب السماء ووضع القبول في الأرض.

فللحب درجات ومنازل، منها ما يشترك فيه كل خلق الله تعالى باعتبار الخلق والاستخلاف في الأرض، ومنها ما يتطلب شروطاً خاصة في المحبوب وصفات خلقية هي موضع ومناط حب الله تعالى لهم أو عدم حبه لهم، ثم درجة الحب بإطلاق والتي تشمل حب السماء وقبول الأرض.

(١) حب الله تعالى لعباده بالخلق والخلافة:

إن من يتحدث عن حب الله تعالى لكل عباده وخلقه يرى في كل أسماء الله تعالى وأفعاله مداخل محبة وود ورحمة، وأن بداية الخلق محبة وتكريم، ويتتبع كل مظاهر خلق الإنسان واستخلافه في الأرض وتسخير كل ما في الكون له من قبيل الحب من الله تعالى، والذي يشمل كافة الخلق مؤمنهم وكافرهم، فإن الله تعالى لم يخلق هذا الخلق إلا حباً لعباده، فالله المتفرد بصفات الجمال والجلال والكمال ليس في حاجة لخلقه، وإنما خلقهم محبة لهم؛ ليضفي عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، ومن ثم فإن استقراء دلالات الحب هنا يتم عبر مجموعة من الألفاظ الأخرى التي تعبر عن الفكرة كأصل للوجود وكمنهج للتعامل الإلهي.

فبداية الخلق حب، وخلق الإنسان من عدم حب... وخلقه بيديه دون واسطة أو تكليف أحد بذلك حب ...وخلقه في أحسن تقويم حب... وخلقه على صورته تمام الحب وكماله.... ونفخه فيه من روحه حب وتشريف... فالإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً، جمال هيئة وبديع تكوين... ووهبه العقل الذي يدرك به الأشياء، ويتعرف به إلى ربه فيؤمن به وبإحسانه حب... واستخلافه في الأرض رغم اعتراض الملائكة حب... وتعليم الإنسان الأسماء كلها حب... وإسجاده الملائكة تكريم وحب... وعقابه إبليس على استكباره وعدم السجود حب وتكريم للإنسان، وهكذا تترى آيات الله تعالى بالمحبة كأصل للوجود الإنساني وكمقوم

لوجوده وحركته في الحياة. إن قصة الخلق كلها لتنطوي على أسمى معاني ودلالات الحب من الله تعالى لهذا الخلق من عباده، وهو حب يسري إلى كل العباد: من آمن منهم ومن كفر، فهم صنعته يرضى لهم الإيمان، ولا يرضى لهم الكفر.

ثم إن تسخير الكون كله من أجل الإنسان آية على حب الله تعالى للإنسان في كل ما يحيط به، فالكون منفعل بالإرادة الإنسانية إيجاباً وسلباً، لا يمتنع عن الاستجابة لفعل الإنسان مهما كانت درجة قربه أو بعده عن رسالته في الأرض، بل وكفالة الرزق لجنس الإنسان حب، فلا رازق إلا الله، ومن أحب صنعته كفل لها دوام الرزق ولو كان كافراً.

ومن ثم فإن استقراء الآيات القرآنية التي تبين مظاهر حب الله تعالى لكل عباده كثيرة، والتي نجد مفرداتها وألفاظها في خلق الإنسان، العقل، العلم، السجود، أحسن تقويم، العبادة، الاستخلاف، الاستعمار، التسخير، الرزق، الرسل، الرسالات، الشرائع، الخير، الإصلاح، الإحسان، المعاد، الجنة والنار، إلى غير ذلك من المفردات التي تنطوي أو نلتمس منها معاني حب الله تعالى لعباده، بل إذا أردت استقراء مظاهر حب الله تعالى لكل خلقه؛ عليك بالأحاديث القدسية التي تتخذ المحبة والرحمة منهاجاً للخطاب وتبدأ بقول رب العزة جل وعلا: يا عبادي أو عبدي.

بل علينا أن نرى في تتابع إرسال الرسل بمنهج السماء علامة من علامات دوام حب الله تعالى لعباده، ومن ثم فإن استقراء الآيات القرآنية التي تتحدث عن الرسل، وتتابع الرسالات بمنهاج السماء، وأنها دعوة واحدة إلى الإيمان بالله تعالى والإصلاح وعدم الإفساد في الأرض بأي درجة أو نوع أو شكل من درجات وأنواع وأشكال الفساد، على أنها مظهر من مظاهر حب الله تعالى المطلق والشامل لكل عباده[1].

---

[1] انظر على سبيل المثال تتابع دعوة الرسل في سورة الشعراء الآيات ١٠٥-١٨٣، في التأكيد على وحدة المنهج وعلى أمانة الرسل في النصح والدعوة، وأنه لا يسألهم من أجر، ثم التنبيه على نوع أو آخر من أنواع الفساد في الأرض. بل إن تتابع الرسل رغم استمرار التكذيب لهم رسالة في حب الله تعالى لعباده، الحب الذي لا يقتصر على المؤمنين.

(٢) حب المؤمنين : حب الله تعالى لعباده المتصفين بأخلاق محددة:

إن الله يحب لصنعته الصلاح والكمال، ولهذا يحب لعباده الإيمان ولا يرضى لهم الكفر، كما يحب لهم أن يعملوا صالحاً ولا يحب لهم أن يعملوا السيئات، لذا فمن آمن بالله تعالى وعمل صالحاً فهو حبيب الرحمن، ومن كفر بالله تعالى وسعى في الأرض فساداً فإن الله لا يحبه؛ لا لذاته إذ لا يزال عبداً من عباده وخلقاً من خلقه، وإن كان قد اختار الكفر والفساد في الأرض منهجاً للعلاقات الإنسانية، فالله تعالى لا يحب لهم الكفر ولا يرضى لهم سلوك الفساد، دون أن نجد أية دلالة على البغض أو الكراهية لهم، لأن الحب والبغض سلوك إيجابي ينطوي على دلالات قلبية، لكن عدم الحب هو حجب لسلوك إيجابي وليس تبديلاً له إلى نقيضه.

ومن أجل ذلك نجد في القرآن الكريم أن حب الله تعالى لعباده قرن صفات تعد من مكارم الأخلاق، في مقابل أن عدم حب الله تعالى لبعض عباده سببه اتصافهم بصفات خلقية سيئة في العقائد والأخلاق والأقوال والأفعال، فالله لا يحب من عباده ما اتصفوا به من رذائل وصفات خلقية تمثل درجة أو أخرى من درجات الفساد في الأرض.

(أ) فئات الذين يحبهم الله تعالى : (المتقون/ المحسنون/ المقسطون/ الصابرون/ المتوكلون/ التوابون/ المتطهرون/ الذين يقاتلون في سبيله صفاً)

إن الآيات القرآنية التي أثبتت باللفظ والعبارة حب الله تعالى لعباده تصف هؤلاء المحبوبين بأوصاف هن أمهات الفضائل والأخلاق، ولها من السمو عما يشاركها في أصل معناها ما يجعلها جديرة بحب الله تعالى، وأنه أمر يعلو بكثير مجرد الرضا أو القبول أو تلك الأعمال التي يثاب المرء على فعلها، فالله يحب المتقين [١]، ويحب المقسطين [٢]، ويحب المحسنين [٣]،

---

[١] آل عمران: ٧٦، التوبة ٤، ٧ (ابن كثير ٢/٦٠-٤/١١٠، القرطبي ٤/١١٩-٨/٧١، روح المعاني ٣/٩٨، التحرير والتنوير ٦/٢٢١، أضواء البيان ٢/٢٠٣).

[٢] المائدة ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨ (ابن كثير ٣/١١٣، ٧/٣٧٥، القرطبي ٦/١٨٢، ١١/١١٢، ١٦/٣١٥، ١٨/٥٨، التحرير والتنوير ٤/٢٠١، ١٤/١٩، ١٥/٣٨).

[٣] البقرة: ١٩٥، آل عمران ١٣٤، ١٤٨، المائدة ١٣، ٩٣ (ابن كثير ١/٥٢٨، القرطبي ٢/٣٦١).

ويحب الصابرين[١]، ويحب المتوكلين[٢]، ويحب التوابين[٣]، ويحب المتطهرين والمطهرين[٤]، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً[٥] .

وهي كلها عند التحقيق لها ارتباط قلبي وسلوكي يقود إلى سيادة الحب والود والرحمة وتحقق مهمة خلافة الإنسان في الإصلاح والإعمار . فهؤلاء هم الذين صرح الله تعالى بمحبتهم حتى يعلمنا أن نكون منهم ؛ لسمو في النفس ولأثرهم الإيجابي على حركة الاستصلاح واستعمار الأرض وتحقيق معنى العبودية لله على الوجه الأكمل .

فالله يحب المحسنين، وهي درجة عالية من رقابة الله تعالى . .اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٦]، وهي دعوة إلى الاستحياء من الله تعالى في القول والعمل فلا تجعل الله أهون الناظرين إليك، وهي دعوة إلى التخلق بصفات الله تعالى الذي "أتقن كل شيء"[٧]، و"أحسن كل

---

[١] آل عمران: ١٤٦ (ابن كثير ٢/١٢٨، القرطبي ٤/٢٣١، ٨/٢٤، روح المعاني ٣/٢٥٦، التحرير والتنوير١٤/٣٣٠) .

[٢] آل عمران: ١٥٩ (القرطبي ٤/٢٤٨، روح المعاني ٣/٢٩١، التحرير والتنوير ٣/٢٦٥) .

[٣] البقرة: ٢٢٢(ابن كثير ١/٥٨٤، القرطبي ١/٣٢٥، ٣/٨٠، التحرير والتنوير ٢/٣٠٢، في ظلال القرآن ١/٢٢٢) .

[٤] البقرة: ٢٢٢، التوبة ١٠٨ (ابن كثير ٤/٢١٠، القرطبي ٣/٨٩، ٨/٢٥٩، روح المعاني ٧/٢٦٣) .

[٥] الصف: ٤ (في ظلال القرآن ٧/١٨٩، ابن كثير ٨/١٦٠، القرطبي ٧/٢٩٩، التحرير والتنوير ٩/٦٦)

وانظر في تناول تلك الصفات وحكمة حب الله تعالى لعباده المتصفين بها كلا من عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (دمشق: دار القلم، ط٥، ١٩٩٩، ج٢، ص٢٥٦ وما بعدها) و محمود بن الشريف، الحب في القرآن، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط١، ١٩٨٣، ص١٠٢ وما بعدها) .

[٦] صحيح البخاري ومسلم: "عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْمَرْأَةُ رَبَّتَهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا وَإِذَا كَانَ الْحُفَاةُ الْعُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ" .

[٧] النمل ٨٨، التين ٤، البقرة ١٣٨

شيء خلقه"[1]، و "الذي كتب الإحسان في كل شيء"[2]. الأمر الذي يقود هؤلاء المتصفين بالإحسان إلى عدم السلبية وإلى الفاعلية في الحركة وتطبيق منهاج الله تعالى في أرضه.. وهي كلها دلالات سلوكية على تطبيق منهاج الإحسان في كل حركة الحياة[3].

ولعل كثرة الآيات التي تدعو الإنسان إلى التوبة تدل على خطورة المعصية، وأثرها في البعد عن الله تعالى، ولذا فالله يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده[4] ويدعوه دائماً إلى التوبة مهما بلغت ذنوبه، لأن الإنسان يعلم أن له رباً رحيماً كريماً غفوراً يقبل التوبة ويعفو عن السيئات[5]، فيرجع إليه بمزيد من الحب والتقرب[6]، لرب لا يجازي السيئة السيئة ويضاعف الحسنات إلى ما شاء الله تعالى.

---

[1] السجدة ٧، ابن كثير ٦/٣٦٠، زاد المسير ٥/١١٤، أضواء البيان ٣/٣٤٢، في ظلال القرآن ٣/١٩٣، روح المعاني ١/١٣٠.

[2] صحيح مسلم: "عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإحسان عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ". انظر آيات الإحسان في القول (الإسراء٥٣/ فصلت ٣٣) وفي الدعوة (النحل ١٢٥/العنكبوت٤٦) وفي الوفاء بالعهود (الإسراء٣٤) وفي كافة المعاملات (المؤمنون٩٦/ فصلت ٣٤/ الأحقاف ١٦) وفي الابتلاء بالإحسان (الكهف ٧/ هود٧/ العنكبوت٧/ الملك ٢) وفي الأجر والثواب (الكهف ٣٠/النور٣٨/الأحقاف١٦).

[3] أحمد نصيب الحاميد، الحب بين العبد والرب، ص ص ٢١-٣٤

[4] في صحيح مسلم عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ تَقُولُونَ بِفَرَحِ رَجُلٍ انْفَلَتَتْ مِنْهُ رَاحِلَتُهُ تَجُرُّ زِمَامَهَا بِأَرْضٍ قَفْرٍ لَيْسَ بِهَا طَعَامٌ وَلا شَرَابٌ وَعَلَيْهَا لَهُ طَعَامٌ وَشَرَابٌ فَطَلَبَهَا حَتَّى شَقَّ عَلَيْهِ ثُمَّ مَرَّتْ بِجِذْلِ شَجَرَةٍ فَتَعَلَّقَ زِمَامُهَا فَوَجَدَهَا مُتَعَلِّقَةً بِهِ قُلْنَا شَدِيدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَا وَاللَّهِ لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ الرَّجُلِ بِرَاحِلَتِهِ" وفي رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا".

[5] وذلك من منهج الرحمة، فهو جل جلاله التواب الرحيم (البقرة٣٧، ٥٤، ١٢٨/التوبة ١٠٤، ١١٨) وهو الغفور الرحيم (يونس١٠٧/ يوسف٩٨/ الحجر٤٩/ القصص١٦/ الزمر٥٣/ الشورى ٥/ الأحقاف٨)، ويدعو عباده إلى التوبة (هود ٣، ٥٢، ٦١/ الحجر٤٩/ التحريم٨/ الزمر ٥٣)، والتوبة لا تقتصر على عباد الله العاصين، فهناك توبة العابدين من الخلل والنقص الذي يقع في الطاعات ومن عدم الامتثال (من لم تنه صلاته) ومن الظن أن هذه الطاعات هي منتهى حق الله تعالى عليه، وأنه قد برأت ذمته منها بمجرد الأداء. لذا اقترن حب الله للتوابين بحبه تعالى للمتطهرين تنبيهاً على طهارة الظاهر وطهارة السرائر، أي تطهير القلوب من الأخلاق المذمومة أو تطهير القلوب مما سوى الله تعالى. ولهذا زادت عناية الصالحين بطهارة القلب والتنبيه على أنها بداية الطريق لمعرفة وحب الله تعالى.

[6] في مسند أحمد: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشِي أَتَاهُ اللَّهُ هَرْوَلَةً".

كذلك ترسم الآيات صورة واضحة أخرى يحبها الله للمؤمنين ويرغبهم فيها، ويحضهم عليها، وهم الذين يقاتلون في سبيله صفاً، بما تحمله من دلائل حبهم لله تعالى وبذلهم أغلى ما لديهم في سبيل الله تعالى، لأن بذل النفوس لا يكون إلا ثمرة الإخلاص الصادق في محبة الله تعالى . . .والذين آمنوا أشد حباً لله، كما نرى فيها تأكيد محبة الله لصفات الجماعة المسلمة وقوة ارتباطها ارتباط نظام ومنهج وحركة وغاية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً [١]، في حركة واعية نحو تحقيق منهج الله تعالى بالتدافع ومنع الفساد والكفر في الأرض.

وعلى هذا المنهاج يمكننا الحديث عن حب الله تعالى للمتقين[٢] والمقسطين[٣] والمتوكلين[٤] والصابرين[٥]، فكلها من الصفات الأخلاقية التي تدل على طهارة القلوب وعلى السعي إلى التخلق بأسماء الله تعالى وصفاته في الكون عبادة واستصلاحاً واستعماراً، ومن ثم يمكننا استقراء تلك الصفات، ثم وضعها في منظومة من القيم، وتحديد علاقاتها الارتباطية والحركية كمرحلة أولى، ثم علاقاتها بغيرها من القيم والصفات الأخرى التي تعبر عنها بدرجة أو بأخرى.

بتعبير آخر علينا وضع منظومة قيمية لكل الصفات الأخلاقية التي يحبها الله من الإحسان. . التقوى. . القسط. . . التوكل. . . الصبر. . . التوبة. . . الطهارة والنقاء. . .

---

[١] أحمد نصيب المحاميد، الحب بين العبد والرب، ص١٨

[٢] المرجع السابق، ص ص ٧٠-٧٣

[٣] المرجع السابق، ص ص١٠٠-١١٢

[٤] المرجع السابق، ص ص٩٢-٩٩

[٥] المرجع السابق، ص ص٧٤-٩١

الجهاد، ثم تحديد ما يمثل منها دلالات قلبية وما يشكل منها دلالات حركية، ثم وضع علاقات الترتيب والتصاعد بين تلك الصفات، بهدف الخروج منها بمنظومة موحدة لمن يحبهم الله تعالى[١] .

(ب) فئات الذين لا يحبهم الله: (الكافرون/ المفسدون/ الظالمون/ المعتدون/ الفرحون/ المستكبرون/ الخائنون/ المسرفون)

لأن الكفر هو أصل كل القبائح وعنه تشتق كل أشكال الفساد في النفس وفي الأرض، فإن الله لا يحب الكفر ولا يحب الكافرين[٢]، مثلما لا يحب الفساد[٣] ولا يحب المفسدين[٤]، وتتنوع الآيات التي تدور حول الأخلاق والسمات التي تمثل رابطاً منهجياً قويا بين الكفر والفساد، فالله لا يحب كل كفار أثيم[٥]، ولا كل خوان كفور[٦]، مثلما لا يحب من كان مختالا فخوراً[٧]، أو من كان خواناً

---

[١] بمعنى أن نضع المحبة كمنهج طريق أو اتجاه ينتقل فيه السالك من صفة يحبها الله تعالى إلى صفة أخرى أرقى منها وألزم، ومن ثم من درجة من درجات القرب لله تعالى إلى درجة أسمى، مع التأكيد على أن يكون من الصفات ما له صلة بالتعلق القلبي، وما له صلة بالسلوك العملي، ولذا نجد الكتابات تذكر من مقامات القرب من الله تعالى ذات عين الصفات التي يحبها الله تعالى في عباده، ومنها التوبة والورع والزهد والتقوى والصبر والتوكل والرضا، على حين يجعلوا من المراقبة والمحبة والخوف والرجاء والشوق والطمأنينة واليقين أحوال قلبية ومناهج للحركة والسلوك . وهكذا تصير لدينا منظومة متكاملة جامعة لدلالات المحبة .

[٢] آل عمران ٣٢، الروم ٤٥ (جامع البيان ٣٢٥/٦، ابن كثير ٣٢/٢، ٣٢٠/٦، القرطبي ٦٠/٤، ٤٢/١٤، روح المعاني ٤٩٣/٢، التحرير والتنوير ٢٠/١٠أضواء البيان ٢٦٨/٥) .

[٣] البقرة ٢٠٥ (جامع البيان ٢٣٠/٤، ابن كثير ٥٦٤/١، ٩٤/٣، القرطبي ١٦/٣، ٣٩٧/٣)

[٤] القصص ٧٧ (جامع البيان ٤٥٣/١٠، ابن كثير ١٤٥/٣، ١٠٥/٢٥٢٧/٦، القرطبي ٢٣٨/٦، ٣٠٩/١٣) .

[٥] البقرة ٢٧٦، والتي أتت في قوله تعالى: ﴿ **يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** ﴾، بما يعقد المناسبة ما بين الربا وبين عدم حب الله تعالى لكل كفار أثيم، نظراً لخطورة الربا وحرص الإسلام على محاربته كنظام اقتصادي واجتماعي مدمر للعلاقات الإنسانية، وأنه لا يرجع إلى الربا بعد ذلك كله إلا كل كفار (بجحد أصل تحريم الربا) أثيم (يرجع إلى الربا مع اعتقاده بالتحريم بقوله إن البيع مثل الربا . (جامع البيان ١٥/٦، ابن كثير ٧١٢/١، القرطبي ٣٦٢/٣) .

[٦] الحج ٣٨ (ابن كثير ٤٣٣/٥، القرطبي ٦٧/١٢، معالم التنزيل ٣٨٨/٥، جامع البيان ٦٤١/١٨) .

[٧] النساء ٣٦، لقمان ١٨، الحديد ٢٣ (جامع البيان ٣٤٩/٨، ١٩٧/٢٢، ابن كثير ٣١٧/١، القرطبي ١٩٢/٥) .

أثيماً[١]، أو الجهر بالسوء من القول[٢]، أو كان من الخائنين[٣] أو الفرحين[٤] .

ولأن الله تعالى لا يحب الفساد في الأرض ولا المفسدين، فإنه لا يحب الظالمين[٥]، ولا يحب المعتدين[٦]، ولا يحب المستكبرين[٧]، ولا يحب المسرفين[٨] . . . وهي كلها عند التحقيق صفات مذمومة لها ارتباط قلبي وسلوكي وتقود إلى سيادة الكراهية والبغضاء والعدوان والفساد في الأرض .

ومن ثم فنحن في حاجة إلى وضع منظومة أخرى لما لا يحبه الله تعالى من الصفات: الكفر، الفساد، الظلم، الاعتداء، الاستكبار، الإسراف، الخيانة، الإثم، الخيلاء، البخل، ثم تحديد طبيعة العلاقات الارتباطية والحركية بين مفرداتها، وما يرجع منها إلى تعلق قلبي أو دلالات سلوكية، وكيف تنطبق تلك المنظومة القيمية على المجتمعات التي ذكر الله تعالى نماذج لها في القرآن الكريم . . . كيف تحققت تلك المنظومة في قوم شعيب مثلاً أو قوم نوح أو لوط أو صالح، وكيف ساد في كل تلك المجتمعات نمط أو آخر من الفساد في الأرض .

ولاحظ أن الآيات الكريمة لا تذكر لفظ "البغض" أو "الكراهية" أو غيرها من الأفعال الإيجابية[٩]، وإنما تذكر دلالة " عدم الحب "، والذي ينصرف إلى السلوك والأخلاق غير المرضية التي يجمع العقل على استهجانها وإدانتها في العقائد والأقوال والأحوال والأعمال .

---

[١] النساء ١٠٧ (جامع البيان ٩/١٩٠، ابن كثير ٢/٤٠٤، القرطبي ٥/٣٧٨، البغوي ٢/٢٨٤) .

[٢] النساء ١٤٨ (جامع البيان ٩/٣٤٤، ابن كثير ٢/٤٤٢، القرطبي ٥/٤٢٧، البغوي ٢/٣٠٢) .

[٣] الأنفال ٥٨ (جامع البيان ١٤/٢٥، ابن كثير ٤/٧٩، القرطبي ٨/٣١، البغوي ٤/٢٤٩) .

[٤] القصص ٧٦ (جامع البيان ١٩/٦١٥، ابن كثير ٧/١٠٥، القرطبي ١٣/٣١٣، البغوى ٦/٢٢٠) .

[٥] آل عمران ٥٧، ١٤٠، الشورى ٤٠ (جامع البيان ٦/٤٦٥، ٧/٢٤٤، ٢١/٥٤٧، ابن كثير ٧/٢١٢، القرطبي ١٦/٤١) .

[٦] البقرة ١٩٠، المائدة ٨٧، الأعراف ٥٥ (جامع البيان ٣/٥٦١، ١٠/٥١٣، ابن كثير ٣/١٦٩، القرطبي ٢/٣٤٧)

[٧] النحل ٢٣ (جامع البيان ١٧/١٨٩، ابن كثير ٤/٥٦٥، القرطبي ١٠/٩٤) .

[٨] الأنعام ١٤١، الأعراف ٣١ (جامع البيان ١٢/١٧٣، ابن كثير ٣/١٧٣، القرطبي ٧/١٨٨) .

[٩] فالكراهية أو البغض لا تقترن بالله تعالى وإنما بإعلاء دين الله تعالى ولو كره الكافرون (التوبة ٣٢/ الصف٨) والمشركون (التوبة ٣٣/ الصف٩) والمجرمون (الأنفال٨/ يونس٨٢) .

انظر على سبيل المثال نموذج قارون في الإفساد في الأرض بالمال، وأن الله لا يحب الفرحين، فالفرح المقصود هنا هو الزهو المنبعث عن الاعتزاز بالمال والتعلق بالثراء، والبطر الذي ينسي المنعم وينسي نعمته، وما يجب عليها من الحمد والشكر كدلالة أولى، لكن الأهم هو الاقتران ما بين نسيان المنعم "إنما أوتيته على علم عندي"، وما بين البغي وابتغاء الفساد في الأرض، والإعراض عن النصح، ثم الضرر العام الذي أصاب المجتمع من جراء خروجه في زينته، وما صاحبها من انقلاب المعايير وانفلات المشاعر وفقدان الثقة في ثوابت المجتمع، وملء قلوب الناس بالحرج والحسد والبغضاء.

فكل تلك الأخلاق التي لا يحبها الله تعالى فيها من التعلق القلبي ومن السلوك الاجتماعي ما يقود إلى الفساد في النفس و الأرض، ونموذجها نجده في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٥).

حيث نجد الاقتران واضحاً ما بين الإعجاب بالمظهر والسلوك والحديث لكنه في الباطن ألد الخصام؛ تزدحم نفسه باللدد والخصومة، لا موضع فيها للحب والخير ولا الود والسماحة، ولذا فإنه يتوجه إلى الشر والفساد في قسوة وجفوة ولدد، ينشر الخراب والدمار، ويهلك كل حي من حرث ونسل، ولعل إهلاك كل مظاهر الحياة وأصل الوجود إنما هو تعبير صادق عما يعتمل في نفسه من حقد وشر وكراهية، يظهران بمجرد التولي مع الاجتهاد والمسارعة، والأهم هو أخلاق الكبر وعزة الإثم إذا ما ووجه بنتائج عمله.

كذلك من الصفات النفسية التي لا يحبها الله تعالى، كل مختال فخور في قوله تعالى: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ (الحديد: ٢٣-٢٤)، لأن إنكار نعمة الله عليه واختياله بما جمعه يقوده إلى بخله بها على عباد الله تعالى، بل وأمر

الناس بالبخل حتى يصير سلوكاً جماعياً يقود إلى الفساد في الأرض، فهو لا يكتفي بعدم شكر المنعم على نعمه، ولا عدم أداء حق الله تعالى فيها ، بل يدفع الآخرين بطريق الأمر بذلك، فيسود المجتمع شعور الحقد والتحاسد والبغضاء وقطع العلاقات الإنسانية .

وأخيراً فإن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول، لأن الجهر بالسوء من القول في أي صورة من صوره سهل على اللسان، ما لم يكن هناك تحرج من الضمير وتقوى الله تعالى، وشيوع هذا السوء يترك آثاراً سلبية عميقة في المجتمع، ويدمر الثقة المتبادلة بين أفراده، حتى ليخيل للناس أن الشر صار غالباً، بما يقود إلى الانحلال الاجتماعي والفوضى الأخلاقية وشيوع الاتهامات وفقدان الثقة بين الناس، وهكذا الأمر بصدد كافة الأخلاق والصفات التي لا يحبها الله تعالى .

مجمل القول إن الله يحب من الخصال الحميدة ما تجمع العقول على استحسانها والحث عليها؛ لما لها من قيمة في حد ذاتها ؛ ولما لها من تأثيرات إيجابية في المجتمع والعلاقات الإنسانية، وبما يقود إلى تحقق مهام الاستخلاف الإنساني في الأرض، وفي المقابل فإن الله تعالى لا يحب في عباده من الصفات المذمومة : لما للتخلق بها من تأثيرات ضارة للفرد والجماعة .

ومن ثم فإننا في حاجة إلى وضع منظومة قيمية جامعة لكل الصفات التي يحبها أو التي لا يحبها الله تعالى، على شكل متقابل أو متجاور، نجد لها نموذجاً في تجربة العبد الصالح مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، فهي مثال يحتاج إلى استقراء لدلالات ونماذج حب الله تعالى، وكيف تصير الحركة بالمحبة منهاجاً للحياة، من خلال تحديد من يحبهم الله في التجربة (مساكين يعملون في البحر/ أبواه مؤمنين/ غلامين يتيمين كان أبوهما صالحاً ، ومن لا يحبهم الله تعالى (ملك غاصب/ ابن طاغ كافر/ أهل قرية أبوا أن يضيفوهما)

(٣) الحب الخالص :حب السماء وقبول الأرض:

أخيراً هناك الدرجة الثالثة من حب الله تعالى لعباده، والتي نجدها في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم : "إنَّ الله إذا أحبّ عبداً

دعا جبريل، فقال: إنّي أحبُّ فلاناً فأَحبَّهُ. قال: فيُحبُّه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إنَّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه فيُحبُّه أهل السماء. قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أَبغض عبدًا دعا جبْرِيل فيقول إنّي أُبْغِضُ فُلانًا فأبغِضْهُ قال فيُبْغِضه جبْرِيل ثمّ ينادِي فِي أَهلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يبغِضُ فُلانًا فأبغِضُوهُ قال فيُبْغِضونهُ ثم توضع له البغضاء فِي الأَرضِ".

فالحب في الإسلام منهاج يعكس تصوراً أصيلاً للإنسان والكون والعلاقات الإنسانية، فالوجود عامر بالحب، والحب بنية النفس السوية التي تعيش متجاوبة مع حقيقة هذا الوجود الجميل، حب يشمل كل الوجود ويبادله الوجود حباً بحب، يشمل علاقة الإنسان بربه (حب الله تعالى)، وحب السماء (حب الملائكة)، وقبول الأرض، وكافة علاقاته بالكون وبالحياة وبالبشر.

ومن ثم فإن البداية الحقيقية – كما في الحديث الشريف – هي الحب الإلهي، وهو أساس كل حب في السموات والأرض، وبما يفيض على نفس الإنسان المحبوب من الله تعالى من الأنوار والإشراقات وبما يوسع من مداركها حتى تشمل الوجود كله، وبما يرفع من كيانها حتى لتصبح وكأنها نور خالص مشرق.

إن هذا الحديث الشريف ليرسخ الدلالات الأصيلة والجوهرية للحب كمنهاج كوني تتعدد أطرافه وعلاقاته إلى ما شاء الله تعالى، فهي ومضة حب تشرق على قلب المؤمن تضيء له صفحة الكون كله فتصله بحب الملائكة وبقبول الأرض، وتعيد للإنسان امتداده الكوني الحقيقي الذي قد لا يعيه في أحواله العادية ولا يدرك حقيقة مداه، فإذا هو محب يلتحق بركاب المحبة، التي يراها في كل مظاهر الكون العابد الساجد المسبح لله تعالى[1].

فهو محب للكون كله ممثلاً بسمواته وأراضيه ونجومه وكواكبه، محب للكائنات الحية يجد نشوته في التفكر في الطير صافات ويقبضن، وفي الجبال وفي الزهر والثمر، في كل صنع الله تعالى، محب

---

[1] الإسراء ٤٤، الحشر ٢٤، الجمعة ١، التغابن ١، النور ٤١ / الرعد ١٥، النحل ٤٩، الحج ١٨.

للبشرية حب لا يتجه إلى صديق ولا صاحب ولا مصلحة، وإنما يسع الناس جميعاً بمودة تربطه بهم بوشائج القربى والأخوة ويحب الخير لهم .

وهي درجة لا يصلها إلا بالتقرب إلى الله تعالى بالطاعات والنوافل، كما في الحديث عن أبي هريرة قال : قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم إنَّ اللَّه قال: "من عادى لِي وَلِيًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عَبْدِي بشيءٍ أحب إليّ مِمَّا افترضت عليه، وما يزال عَبْدِي يتقرَّبُ إليّ بالنَّوافِل حتى أحِبه، فإذا أحْبَبْته كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبصره الَّذِي يبْصِرُ بِهِ، ويده الَّتِي يَبْطِشُ بهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بهَا، ولئن سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنَا فاعِله تردُّدِي عن نفسِ المؤمن، يَكْرَه الموت وأنا أكره مساءَتَهُ"[1] ، فجعل غاية الخلق العبادة، وغاية العبادة المحبة لله جل جلاله .

بتعبير آخر فإن المقصود من وجودنا أو من تسخير الكون لنا لا يكون منحصراً في صلوات خمس نؤديها ، أو في شهر نصومه، أو في حج نفد به إلى بيت الله الحرام، أو في دقائق نذكر الله تعالى فيها ، فلا شك أن هذه كلها من أعظم مظاهر العبادة وأقواها ، لكنها ليست هي العبادة ذاتها ، وإنما المقصود منها أن تجمعنا على حقيقة العبادة، وحقيقة العبادة أن يكون العبد شأنه كله عبادة لله تعالى، أكله وشربه ورضاه وسخطه وحبه وبغضه، فلا "يَحِقُّ الْعَبْدُ حَقَّ صَرِيحِ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ لِلَّهِ تَعَالَى وَيُبْغِضَ لِلَّهِ، فَإِذَا أَحَبَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَبْغَضَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْوَلَاءَ مِنْ اللَّهِ، وَإِنَّ أَوْلِيَائِي مِنْ عِبَادِي وَأَحِبَّائِي مِنْ خَلْقِي الَّذِينَ يُذْكَرُونَ بِذِكْرِي وَأُذْكَرُ بِذِكْرِهِمْ"[2] .

---

[1] صحيح البخاري ٦٠٢١، مسند أحمد ٢٤٩٩٧

[2] مسند أحمد ١٣٥/٣١ عن عمرو بن الجموح. راجع سؤال الصحابي زيد الخير لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهانى عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أجابه بسؤال عن السلوك والحركة والمحبة فقال له:"كيف أصبحت ؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله، ومن يعمل به، وإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حننت إليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذه علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد ، ولو أرادك بالآخرة هيأك لها ، ثم لا تبالي في أي واد هلكت " . فالجواب كان عن أحاسيس في قلب الرجل من الحب والفرح والحنين، وأن هذه علامات إرادة الله تعالى للقرب من العبد .

فحقيقة إيمانك أن تنتزع مشاعرك وسلوكك من الحب والبغض من نسبتها إلى نفسك، وأن تجعلها في مكانها الحق الصريح وهو نسبتها إلى الله تعالى، وهكذا يصل الإنسان المحب المحبوب إلى عين قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ (طه: ٣٩)، فيحوطه بالرعاية والعناية، ويجعل كل شيء في طاعته، ويحبه كل شيء، ويكون في معية الله تعالى، فلا يسمع إلا ما يرضي الله تعالى، ولا يبصر إلا ما يحبه الله، وكانت جميع جوارحه في طاعة الله تعالى الذي يعلن الحرب على كل من يؤذي له ولياً .

ثانياً : الحب كمنهج للعلاقات الإنسانية : حلاوة الإيمان

إن الفلسفات المعاصرة إذ حصرت الإنسان في ضيق دائرة أنانيته ومنفعته، وسعيه إلى تحقيق مصالحه الشخصية بزعم البقاء للأصلح، وأن سعي كل فرد إلى تحقيق مصالحه الشخصية ما يحقق الصالح العام ؛ قد سلبت منه بعده الإنساني الكوني وعزلته في إطار محبته لنفسه فقط دون أن تكون لديه محبة للآخرين أو شعور بمشاعرهم، وبما قاد إلى كراهية الآخرين وحسدهم وبغضهم والحقد عليهم، وسيادة الانحطاط والقبح الأخلاقي والجمالي في كل نواحي ومجالات الحياة .

ويمكننا تتبع مظاهر القبح الأخلاقي والجمالي والاجتماعي في كل ما نراه محيطاً بنا من أشياء وأفكار ومؤسسات؛ سواء في مسوخ اللباس والزي والتقاليع الشاذة للمظهر، أو في اللوحات المفترض أنها ترجمة للجمال فتصير عنواناً للقبح والرزيلة، أو حتى في لعب الأطفال التي أصبحت عنواناً للبشاعة وترجمة لمعاني القسوة والوحشية الشديدة في السلوك والتعامل، وغيرها من مظاهر ليس لها من أصل سوى سيادة القبح والبغضاء بين الناس، في الفكر والإحساس والسلوك .

ناهيك عن الانغلاق والوحشية في التعامل مع الآخر المختلف في الأصل أو الجنس أو الفكرة أو السلوك، مما يؤكد أن سيادة التطرف الفكري والديني، وعدم قبول منطق التعددية والاختلاف، والتعامل الوحشي مع كل المخلوقات بالإبادة وسوء الاستعمال، إنما هو ترجمة صادقة لسيادة الكراهية والأنانية بين الناس .

ولا شك أن انطلاق الإنسان عن دائرة أنانيته الضيقة إلى دائرة أشمل وأعم، وخروج الإنسان من إطار محبته لنفسه إلى محبة الآخرين إنما هو ارتقاء خلقي كريم، واستعادة لبعده الكوني الأصيل، وأصل ترجع إليه مكارم أخلاقية كثيرة، كالتعاون وإرادة الخير لكل الناس ومشاركتهم في السراء والضراء، وأن يحب لهم مثلما يحب لنفسه، وأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به، فضلاً عن مشاركة الكون المسخر في عبادة الله تعالى[1] .

ويمكننا أن نتصوّر حجم ودرجة التغيير في الفكر والقول والسلوك لو ساد منهج المحبة بين الناس، فالحضارة التي تتخذ من محبة الآخرين منطلقاً للتعامل معهم لابد وأن تعبر عن ذلك المنطلق في كل مجالات الحياة وأبعادها . ولذلك كله ولأهمية سيادة المحبة كمنطلق للتعامل مع الآخر، فقد ارتقى بها الإسلام وجعل محبة الآخرين عنصراً من عناصر الإيمان أو ثمرة من ثمراته، يقترن بها الإحساس بطعم و"حلاوة الإيمان" .

تأمل تعبير "حلاوة الإيمان" في ارتباطها بسلوك المحبة، وكيف أنها تعبر عن سعادة روحية وقلبية وانشراح صدر وطمأنينة نفس لا يشعر بها سوى المؤمن كامل الإيمان، لاحظ أنها لذة عميقة تعجز عن وصفها أو الوصول إليها كافة الفلسفات الوضعية، يستمتع بها المرء إذا صدق في حبه لله تعالى ولرسوله، وإذا صدق في محبته للآخر محبة نقية من الشهوة والمنفعة والمصلحة، وإذا كره مواقع الكفر كما يكره عذاب النار .

ولا يعرف "حلاوة" الإيمان إلا من "ذاقها"، في قرارة نفسه وأعماق فؤاده، فمن ذاق عرف، ولا يمكن ترجمتها ولا التعبير عنها باللسان، فمن أحس بها وذاق طعم حلاوتها سعد واستمتع، وسكن إليها قلبه، واطمأنت بها نفسه، وأخذت عليه كل جوارحه، فنشط للعمل بما يوجبه الإيمان .

ومن ثم فليست حلاوة الإيمان بالدلالات السلبية التي نجدها في غيرها من فلسفات الألم واللذة والمنفعة، والتي تعني مجرد التخلص من آلام القلق والاضطراب والشك والحيرة ؛ ولو بارتكاب

---

[1] عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ص٢٤٩

الموبقات وتغييب العقل والجسد عن الوعي، وإنما هي سعادة يقذفها الله تعالى في قلوب عباده، سعادة لها دلالاتها الإيمانية التي تنعكس على شخص المؤمن وهيئته وأقواله وأفعاله.

كما أن حلاوة الإيمان ليست باللذة المنقطعة أو سريعة التحول والتبدل، أو تلك التي تراوح مكانها ما بين ألم ولذة، وبين شقاء وسعادة، وإنما هي لذة مقيمة وسعادة لا تعرف معها نقيضا ولا معادلا، ولا يجتمع معها ألم ولا شقاء، بما لا يسع المرء وصفه لا في النوع ولا في الكيف.

وترد حلاوة الإيمان وعناصرها ومناطها في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: " ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لله، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ "[1]

فلا يجد تلك الحلاوة الإيمانية إلا من جمع بين مقومات أساسية ثلاثة: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما من بشر وأشياء بل ودنيا وآخرة، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله تعالى بما يعنيه من ترابط عفيف نقي من شوائب المصلحة والمنفعة، وأن يكره أن يعود في الكفر كراهيته أن يقذف في النار.

فحلاوة الإيمان هنا هي الإجلال والتعظيم والطاعة في رحلة معراج يقطعها الإنسان في التماس القرب والأنس والاشتياق . . . معراج منهجه التسابق بالخيرات وفعل الطاعات، فلا يجد الإنسان سعادته ولا أنسه واطمئنانه إلا في رحاب حب الله تعالى ورسوله، ثم يعود من رحلته بمشاعر الحب لكل خلق الله وصنعته . . . محبة إلى الحق والعدل والجمال، محبة إلى الطبيعة والوجود، محبة إلى الإنسانية جميعاً، محبة إلى الأهل والزوج والولد، محبة تنشرح لها نفسه . . . محبة خالصة صافية مجردة عن كل مقابل.

---

[1] مجمع عليه: صحيح البخاري ١/٢٤(١٥) ومسلم ٤٩٠١، على حين يرد في سنن النسائي بقوله: "ثلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ وَطَعْمَهُ: أَنْ يَكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللهِ وَأَنْ يَبْغُضَ فِي اللَّهِ، وَأَنْ تُوقَدَ نَارٌ عَظِيمَةٌ فَيَقَعَ فِيهَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا".

ومن ثم فهناك ترتيب لدرجات الحب المستوجب لحلاوة وطعم الإيمان، ففي المرتبة العليا والسامية تأتي محبة الله ورسوله ؛ لأنها أصل كل خير ومنبع كل محبة لاحقة لكل شيء بعدهما ، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي"[1] . فحب رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مناطه وأساسه محبتنا للحق جل جلاله، فلا يتأتى أن يفصل بين حب الله وبين حب رسوله، لأن هذا يقوم على أساس هذا ، وهذا من أجل هذا ، أحبوني لحب الله، فمن أقام هذا المعنى في قلبه بحث عن معاني محبته للحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وإيثار حضرته على نفسه التي بين جنبيه .

فالمحبة الصادقة إن وقرت في القلب ورسخت لا يتأتى أن تتزعزع، بل إنها تزداد وتزداد إلى ما لا منتهى، فكلما ارتقى المحب مرتبة في المحبة طالبته هذه المرتبة بأن يقصد التي تليها وأن يطلب التي تأتي بعدها ، وهي دلالة قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "يَا رَسُولَ اللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ :فَإِنَّهُ الآنَ وَاللَّهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الآنَ يَا عُمَرُ"[2] . وقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ "[3] .

ثم يأتي حب المرء لأخيه لا يحبه إلا لله تعالى، حيث يكون التحابب مدفوعاً بحب الله تعالى؛ يجتمع عليه المتحابان ويفترقا عليه، بما يجعله من أرقى صور الحب بين البشر، لا تشوبه مصلحة ولا شهوة ولا منفعة . فالأصل في خلق المسلم الذي يعامل به جميع عباد الله هو خلق المحبة لا

---

[1] سنن الترمذي ١٢/٢٦٠

[2] صحيح البخاري ٢٠/٣١٤

[3] متفق عليه

خلق الكراهية، فالمسلم المؤمن مشرق القلب منفتح الفؤاد لكل عباد الله ويريد الخير لكل عباد الله تعالى.

وهو أمر عظيم لا يمكننا متابعة دلالاته إلا بملاحظة ما أعده الله تعالى للمتحابين بجلاله يوم القيامة؛ من ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله[1] أو غرف أو منابر من نور[2]، فكل ما أعده الله تعالى للمتحابين بجلاله لبرهان صادق على أن الله جعل غاية الخلق العبادة وجعل غاية العبادة حب الله تعالى، في أعلى عليين عبر درجات من الترقي والسمو يغبطهم عليها وعلى مرتبة قربهم من الله تعالى حتى الأنبياء والشهداء.

ففي مسند أحمد من حديث أبي مالك الأشعري: "فقال يا أيها النَّاسُ اسمَعُوا وَاعْقِلُوا واعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ ولا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الأَنبياء والشُّهداءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ،

---

[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ لِجَلَالِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلِّي" (صحيح مسلم ١٢/٤٣٣ -٤٦٥٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ" (صحيح البخاري ٦٢٠).

[2] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الْمُتَحَابِّينَ لَتُرَى غُرَفُهُمْ فِي الْجَنَّةِ كَالْكَوْكَبِ الطَّالِعِ الشَّرْقِيِّ أَوْ الْغَرْبِيِّ فَيُقَالُ مَنْ هَؤُلاءِ فَيُقَالُ هَؤُلاءِ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" (مسند أحمد ١١٤٠٢)، عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ قَالَ "دَخَلْتُ مَسْجِدَ حِمْصَ فَإِذَا فِيهِ حَلْقَةٌ فِيهَا اثْنَانِ وَثَلاثُونَ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَفِيهِمْ شَابٌّ أَكْحَلُ بَرَّاقُ الثَّنَايَا مُحْتَبٍّ فَإِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ سَأَلُوهُ فَأَخْبَرَهُمْ فَانْتَهَوْا إِلَى خَبَرِهِ قَالَ قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قَالَ فَقُمْتُ إِلَى الصَّلاةِ قَالَ فَأَرَدْتُ أَنْ أُلْقَى بَعْضَهُمْ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ انْصَرَفُوا فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ دَخَلْتُ فَإِذَا مُعَاذٌ يُصَلِّي إِلَى سَارِيَةٍ قَالَ فَصَلَّيْتُ عِنْدَهُ فَلَمَّا انْصَرَفَ جَلَسْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ السَّارِيَةُ ثُمَّ احْتَبَيْتُ فَلَبِثْتُ سَاعَةً لا أُكَلِّمُهُ وَلا يُكَلِّمُنِي قَالَ ثُمَّ قُلْتُ وَاللَّهِ إِنِّي لاحِبُّكَ لِغَيْرِ دُنْيَا أَرْجُوهَا أُصِيبُهَا مِنْكَ وَلا قَرَابَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَالَ فَلِأَيِّ شَيْءٍ قَالَ قُلْتُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ فَنَثَرَ حِبْوَتِي ثُمَّ قَالَ فَأَبْشِرْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ فَأَلْقَى عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قَالَ فَحَدَّثْتُهُ بِالَّذِي حَدَّثَنِي مُعَاذٌ فَقَالَ عُبَادَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمْ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ".

فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأَعْرَابِ مِنْ قَاصِيَةِ النَّاسِ وَأَلْوَى بِيَدِهِ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ نَاسٌ مِنْ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ اللَّهِ، انْعَتْهُمْ لَنَا يَعْنِي صِفْهُمْ لَنَا، فَسُرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسُؤَالِ الأَعْرَابِيِّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ وَتَصَافَوْا يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا وَثِيَابَهُمْ نُورًا يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يَفْزَعُونَ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" .

ولهذا فقد تواترت الأحاديث التي تقرن محبة الآخرين بالإيمان، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[1]، ومعلوم أن الإنسان لا يحب لأخيه ما يحبه لنفسه حتى يكون عنده الشعور الصادق والعميق نحو أخيه بالمحبة .

وباستطاعتنا أن نكشف ارتباط محبة الآخرين بالإيمان حين نلاحظ أن الإيمان في حقيقته ظاهرة من ظواهر خلق حب الحق والاعتراف به والإذعان له، وأن هذا الإيمان يستلزم حتماً محبة الخالق المنعم، ومن محبة الخالق تأتي محبة عباد الله الذين أمر بمحبتهم ومودتهم، فمن صدق في حبه لله أحب بحبه الخير لكل عباد الله، وبهذا نلاحظ التلازم الوثيق بين الإيمان بالله وتوجيه حب القلوب إليه من جهة وبين الإيمان وتحابب المؤمنين من جهة أخرى في حلقات مترابطة يلزم عنها لوازم تعتبر متممات لها[2] .

---

[1] صحيح البخاري ١٢/٨ (٦٠١٦) ومسلم ٤٩/١ (٤٥) عن أنس بن مالك، أخرجه: ابن المبارك في "الزهد" (٦٧٧)، والطيالسي (٢٠٠٤)، وأحمد ١٧٦/٣ و٢٠٦ و٢٥١ و٢٧٢ و٢٧٨ و٢٨٩، وعبد بن حميد (١١٧٥)، والدارمي (٢٧٤٣)، وابن ماجه (٦٦)، والترمذي (٢٥١٥)، والنسائي ١١٥/٨، وأبو عوانة ٣٣/١، وابن حبان (٢٣٤) و(٢٣٥)، وابن منده في "الإيمان" (٢٩٤) و(٢٩٥) و(٢٩٦) و (٢٩٧)، والقضاعي في "مسند الشهاب" (٨٨٩) من حديث أنس بن مالك، به، وهناك رواية أخرى في مسند أحمد ٣١/٤ و ٣٨٥/٦: "أَنس بْن مَالِكٍ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنْ الْخَيْرِ" . بما تعنيه إضافة القسم وتحديد الخير المحبوب لكل العباد .

[2] عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ص٢٥١ .

ولدى التأمل نلاحظ أن القاعدة التي يرسيها هذا الحديث الشريف تصلح أساساً عاماً لكل الأخلاق الاجتماعية، إذ إن الفضائل الأخلاقية الاجتماعية كلها يشتمل عليها هذا المنبع الرئيس: أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، وذلك على النحو التالي:

أولاً: أن المحبة سلوك إيجابي لا يقتصر على مجرد المجاملات العادية ولا مراعاة الشعور ولا حتى التعاطف، وإنما ينصرف إلى الميل القلبي بالحب الذي يصل في درجته أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه بل ويؤثره على نفسه إلى حد التضحية.

ثانياً: أن المحبة مسلك ذوقي نابع عن عمق الذات، لا يصدر عن تكلف أو إجبار، بما يعنيه من تدخل الإرادة الإنسانية الفاعلة في ترتيب كل ما يترتب على المحبة من أقوال وأفعال.

ثالثاً: أنه سلوك ظاهره التساوي وحقيقته التفضيل، لأن كل واحد يحب أن يكون أفضل من غيره، فإذا أحب لأخيه ما يحبه لنفسه فقد دخل في جملة المفضولين، لذا روي عن الفضيل بن عياض أنه قال لسفيان بن عيينة: إن كنت تريد أن يكون الناس كلهم مثلك؛ فما أديت لله النصيحة، كيف وأنت تود أنهم دونك؟[1] الأمر الذي يقود الإنسان بدافع كمال إيمانه إلى التواضع، وألا يحب أن يكون أفضل من غيره، بل يفضلهم ويؤثرهم على نفسه، فلا مجال للحب إلا بترك الحسد والغش والحقد.

رابعاً: قال الكرماني: ومن الإيمان أيضاً أن يبغض لأخيه ما يبغضه لنفسه من الشر، ولم يذكر في الحديث؛ لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه. ولذا تتواتر الأحاديث التي تجعل تمام الإيمان الحب لله تعالى والبغض لله تعالى[2].

---

[1] فتح الباري ١/٢٠

[2] عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ". وعن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أفضل الأعمال: الحب في الله والبغض في الله" وعن معاذ بن أنس الجهني أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الإيمان، فقال: "أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك في ذكر الله " وعن عمرو بن الجموح، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يحق العبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله، فإذا أحب لله، وأبغض لله فقد استحق الولاية من الله " وعن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أوثق عرى الإيمان: أن تحب في الله وتبغض في الله". (المسند ١/٢٨٦، أحمد ٥/١٤٦، ٣/٤٣٧/ داوود ٤٥٩٩، ٤٦٨١/ الترمذي ٢٥٢١).

خامساً: أن الحب ينصرف إلى عباد الله جميعاً، فهو يحب لهم الخير من الإيمان والإحسان وخصال الخير والإصلاح، ويكره لهم الكفر وخصال الشر والفساد، ويصدر في كل تصرفاته عن حب و محبة، حتى ليصير الجهاد في سبيل الله تعالى ومن أجل حفظ الآخرين سلوكاً يندرج في المحبة، كما يندرج في الإيمان سواء بسواء[1]. فلا نجد في شروح الحديث ما يقيد حب المرء لأخيه بقيد الإسلام ولا الإيمان، ومن ثم يظل اللفظ على إطلاقه لينصرف إلى كل عباد الله تعالى وخلقه، خاصة أن محبة المسلم تدفعه إلى أن يريد للناس جميعاً أن يكونوا مؤمنين، لأنه يعلم أن هذا هو سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، وأن يشاركوه في النعيم المقيم الذي أعده الله للمؤمنين، لذا فهو يحرص على دعوة الآخرين لمشاركته بدافع المحبة لهم والخوف عليهم، والتي نجد نموذجها الأكمل في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

سادساً: أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أوضح وأبان لنا طرق ووسائل ومناهج ترسيخ الحب بين المؤمنين، على نحو يجعل الحب منهاجاً وسلوكاً يومياً للمسلمين في توادهم وتراحمهم، من قبيل الحث على إفشاء السلام[2]، والحذر من الحسد والبغضاء[3]، والتزاور[4]،

---

[1] (الأعراف ٥٩/ هود٢٦/ مريم٤٥/ الشعراء١٣٥/ الأحقاف٢١).

[2] كما في صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؛ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ". وعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَفْشُوا السَّلامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَكُونُوا إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ".

[3] ففي سنن الترمذي "عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ يَعِيشَ بْنِ الْوَلِيدِ أَنَّ مَوْلَى الزُّبَيْرِ حَدَّثَهُ أَنَّ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثَبِّتُ ذَاكُمْ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ".

[4] في صحيح مسلم ومسند أحمد وصحيح ابن حبان عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَنَّ رَجُلا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تَذْهَبُ؟ قَالَ: أَزُورُ أَخًا لِي فِي اللَّهِ فِي قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لا وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ".

والحرص على شيوع ذلك الحب والمودة بالإعلام والقول[1]، وغير ذلك من التوجيهات النبوية السامية.

وأخيراً فإن العنصر الثالث المكمل لحلاوة الإيمان يحتاج منا إلى وقفة خاصة لها دلالتها على معاني الحب والكراهية، فالأصل العام لخلق المسلم هو المحبة الصادقة لكل ما يحيط به في الكون من بشر وشجر وحجر، محبة أصلها وذروة سنامها محبة الله تعالى ورسوله، والتي تؤتي ثمرتها في محبة عباد الله جميعاً ومعاملتهم بهذا الأصل العام، لكن ألا يكره المؤمن ؟ ألا يبغض شيئاً أو فرداً ؟ وهل الحب في مراتبه المتسامية سلوكاً فطرياً لا مجاهدة فيه ولا جهاد ؟

إن الأخلاق عند الإمام الغزالي تكتمل بأربعة أمور، أحدها : فعل الجميل والقبيح . والثاني: القدرة عليهما . والثالث: المعرفة بهما . والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين؛ إما الحسن وإما القبيح[2]، ومن ثم هناك حاجة إلى السير على منهاج الاعتدال في الأخلاق، والتوجيه الإيجابي لمشاعر النفس البشرية نحو مراد الله تعالى، فكما يحب لله – تعبيراً وتوجيهاً لقوى النفس – فإنه يبغض لله بنفس الدرجة تعبيراً وتوجيهاً لقوى النفس، بما يعنيه ذلك من

---

[1] في سنن أبي داوود: أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ"، فإذا أحب المرء أخاً له في الله فمن السنة أن يعلمه بذلك ويعرب له عن محبته إياه حتى تتوثق بينهما أواصر وعرى المحبة الصادقة . وفي معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني قوله عليه الصلاة والسلام: " إذا أحب الرجل الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه، وممن هو، فإنه أوصل للمودة" .

[2] المرجع السابق، ج٢، ص٢٥٣ "وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء، وليس هو عبارة عن القوة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد . بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل . فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة . وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر؛ فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو: قوة العلم، وقوة الغضب وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاثة" .

تفريغ لواعج الغضب ونوازع البغض والكراهية من دلالاتها المرضية السلبية والتسامي بها إلى مرتبة تذوق حلاوة الإيمان.

فلا تعارض بين كون الأصل في خلق المسلم الذي يعامل به الناس هو خلق المحبة وبين كونه يبغض الشر والباطل والفساد والمتصفين بها، فهو يبغض فيهم هذه الصفات ولا يبغضهم لذواتهم، وليس معنى معاملة الناس على أساس خلق المحبة موالاة هؤلاء أو عدم الحذر منهم أو الاستسلام لمكائدهم، فهذه من أمور الغفلة وعدم التبصر بحقائق الأمور[1]، ومن ثم فإن البغض لله والحب لله تعبير عن نوازع النفس البشرية ويسيران على خطين متوازيين، تتوثق بهما عرى الإيمان وتكتمل[2]، على نحو يجعلها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى[3].

مجمل القول إن كمال الإيمان وتذوق المسلم لحلاوة الإيمان لا يكون إلا بأمرين: الحب لله تعالى والبغض لله تعالى، فهي كراهية منضبطة تنصب على الأفعال التي يجمع العقل والشرع والخلق السليم على ذمها لا الذوات من ناحية، ومن ناحية أخرى على عدم عودته هو في الكفر كراهيته أن يلقى في النار، فهو يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار، وهذا مقياس عظيم لصدق الإيمان وكماله، ووضوح الشهود الإيماني وكماله يظهران بشدة الخوف من نتائج نقيضه، وكل إنسان حاضر الوعي لابد أن يكره النار والعذاب فيها، ويكره ما هو سبب ذلك، ولا يكون

---

[1] عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ص٢٨٠

[2] ففي المعجم الكبير للطبراني عن ابن مسعود قال: "دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن مسعود، قلت: لبيك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالها ثلاثاً، تدري أي عرى الإيمان أوثق؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن أوثق عرى الإسلام الولاية فيه، والحب فيه والبغض". وفي شعب الإيمان للبيهقي عن أنس الجهني عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أعطى لله ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله فقد استكمل إيمانه".

[3] سنن أبي داوود: "عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ الأعمال الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ". وفي مسند أحمد: "عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَتَدْرُونَ أَيُّ الأعمال أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ قَائِلٌ: الصَّلاةُ وَالزَّكَاةُ، وَقَالَ قَائِلٌ: الْجِهَادُ. قَالَ: إِنَّ أَحَبَّ الأعمال إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ" على نحو يجعل العبادة غاية الخلق ويجعل المحبة غاية العبادة

الإيمان صحيحاً حتى يشهد المؤمن أن عذاب النار نتيجة حتمية للكفر بالله، ولا يكتمل الإيمان حتى تكون هذه العقيدة كالأمر المشهود، فتنفعل النفس بالخوف من عذاب النار، فتكره بشدة ما تخاف منه، فتكره بشدة ما هو سبب له[1]، فتكتمل للمؤمن كل مقومات حلاوة الإيمان.

[1] عبد الرحمن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ص٢٦٨، وبما يعني ذلك من توجيه إيجابي لطاقات النفس البشرية ولواعجها وقواها الغضبية نحو كراهية الكفر، الذي ينصب على الذات وليس على الآخرين في شيء، إذ تظل القاعدة العامة في التعامل مع كافة البشر هي المحبة الخالصة وإرادة الخير.